الفصل السابع
عروس النيل

بالرغم من اختلاف العادات والتقاليد في مصرنا الحبيبة، بين مدنها الساحلية والداخلية، وبين ومدن وادي النيل وصحاريها، وبين الريف الشمالي والريف الجنوبي، إلا أننا نسلم بما ليس فيه مجال للشك، بأن العادات والتقاليد هي نتاج امتزاج الحضارات والشعوب التي استوطنت في مكان ما.

فنجد مدينة مثل الإسكندرية لها طابعها الخاص، التي تتميز به عن باقي مدن مصر جميعا، لما ورثته من سكانها المتعددين، فأهلها مزيج من الرومان والإغريق قديما، ومزيج من اليونانيون والإيطاليين حديثا، لدرجة أن بعضا من اليونانيين يعتبرون أن الإسكندرية بلدهم الأول وليس الثاني، وعادات السكندريين ما هي إلا مزيج وراثي من تلك الشعوب التي عاشت فيها.

ثم نتجه جنوبا إلى صعيد مصر، والنوبة، حيث قل تواجد جنسيات أخرى بهذه المناطق، لما لها من خصوصية سواء في الطباع لتقبل الآخر وسلوكياته، أو خصوصية مناخية لا يتحملها إلا أهلها، خصوصية حفظت لهذه المناطق طباعها وعاداتها وتقاليدها نسبيا، بلا شوائب تشوبها، وبلا تحريف، وإن كان، فهو ضئيل، مما يجعلنا نسلم بأن العادات والتقاليد في صعيد مصر، وفى النوبة تعد هي الأنقى وراثيا، وهى التي

تعبر تعبيرا مباشرا عما كانت عليه عادات وتقاليد المصري القديم في مصرنا الحبيبة.

ولن أتعرض لكل العادات والتقاليد، ولكن يهمني هنا نقطة واحدة فقط، ألا وهى وضع المرأة، وضع المرأة في مصر القديمة، التي سوف نستشفه من وضعها في صعيد مصر، أو في النوبة، فنجد أن الأم، حتى وإن كانت لا تمثل السلطة العليا، إلا أنها تمثل الرمز الأكبر للاحترام والتقدير، والمكانة الأعظم في التبجيل، فنجد الأم الكبيرة، أو كبيرة البيت لها من الوقار والاحترام ما يفوق السلطة الحقيقية للرجل، فرأيها مسموع، وكلمتها مطاعة، واحترامها ليس فقط واجبا على الجميع، بل إن احترامها فوق الواجب، بل أن تبجيلها يعطى المُبجِل لها مقاما رفيعا كلما زاد تبجيله لها.

تلك هي المرأة في الثقافة المصرية الخالصة، تلك هي المرأة في الثقافة المصرية قبل أن يشوبها أي شوائب أجنبية، تلك هي المرأة في الثقافة المصرية القديمة.

أضف إلى هذا، إننا إذا رجعنا بالتاريخ للوراء، إذا رجعنا بالخط الزمني لمصرنا الحبيبة قديما، نجد أن المرأة سميت بأسماء كثيرة، فالأخت والزوجة والمحبوبة هي صفات للمرأة بغض النظر عن كونها زوجة أو أخت أو أم، فنجد الزوجة يطلق عليها أخت، وزوجة، ومحبوبة، لما لها من مقام رفيع، يطلق عليها ربة البيت، وقد استمر هذا الوصف حتى وقتنا الحالي،

ليس فقط في صعيد مصر ولكن في مصر كلها، ربة البيت، لقد نالت المرأة من التكريم ما جعلها توصف بالربوبية، والربوبية هنا تختلف عن الألوهية، فهي ربة البيت وليست إله البيت، ولكن لها من التكريم والتبجيل ما يرتقى للعبادة العاطفية، أو العبادة الوجدانية، وليست عبادة الألوهية؛ تلك هي المرأة في نظر المصري القديم، بل والحديث.

فلم تنلْ المرأة حرية في أي منطقة من مناطق العالم كما نالتها في مصر القديمة، ولم تنلْ هذا التبجيل والتعظيم كما نالته في مصرنا القديمة، فنجدها تخرج من بيتها، وتشارك في الحياة العامة، وتحضر مجالس الحكم، بل وتتولى زمام الحكم.

وعظمت الحضارة المصرية القديمة دور المرأة، وجعلتها بطلة للأساطير.... كما أسند لها المصري القديم مهام إله الخصوبة "حتحور" وزوجة الإله الواحد أمون "أمونيت" ورمز للسماء بالإلاهة "نوت" كما كانت "إيزيس، ونفتيس" اثنان من أربعة آلهة عظمى في الأساطير المصرية القديمة، مشاركة مع "أوزوريس وست" أي أنها كامرأة تساوت في الأساطير مع الرجال، اثنان من الرجال واثنان من النساء، بل نالت في الأسطورة أعظم مما ناله الرجال، فهي التي وهبت أوزوريس – إله الخير – وهبته الحياة بعد مماته، وهى التي سافرت لبلاد بعيدة لتجمع أشلاء زوجها المحبوب أوزوريس، وتنجب من أشلاؤه الإله الحامي لمصر، تنجب حورس، أو حور آختى.

وقد شاركت المرأة في مصر القديمة، في العديد من المواقع العسكرية، بل كانت الحملة العسكرية على الصومال بأمر من "حتشبسوت"، التي أرسلت إلى ملك البلاد رسالة توضح فيها بأن هدف الحملة ليس عسكرياً، ولكنه هدفا تجاريا.. كما أسندت الملكة قيادة الجيش إلى قائد من بلاد النوبة "غس" حتى يستطيع التفاهم مع أهل البلاد... وحملت نقوش الحضارة المصرية القديمة صورا عديدة لحواء في الحياة العامة، والمنزل، والعمل، والحروب العسكرية... وكان لها في ذلك العهد نفوذ داخل أسرتها، جعلتها القائد الفعلي للأسرة رغم وجود دور للأب...

ولكن ما تلك القصص التي شاعت عن عروس النيل، والتضحية بأجمل فتيات مصر في سبيل فيضان النيل، التضحية بمن كرَّمها شعبها من أجل فيضان النيل، ومن الذي يضحى، الذي يضحى هو شعب برع في العلم، وفى معرفة توقيت فيضان النيل، وسافر إلى منابعه للتجارة، وعرف مواعيد الأمطار، وأساس فيضان النيل، بل عرف أن أرض مصر نفسها، ما هي إلا غرين الفيضان الذي يأتي خصبا من أعالى الجبال في بلاد الجنوب، الشعب المتعلم الحكيم تحول في كثير من الأساطير إلى شعب جاهل، يجهل أصل الفيضان، ويلقى بمن كرَّمها كأخت وزوجة، يلقى بها في النيل ليفيض.

أشهر هذه القصص الغريبة، هي قصة عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب عند فتح مصر، حيث جاء في كتاب فتوح مصر

والمغرب، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم: لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل شهر بؤنة؛ فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا سُنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم وما ذاك؟ قالوا: إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشر من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل.

فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله.

فأقاموا شهور بؤنة وأبيب ومسري والنيل لا يجرى كثيرا ولا قليلا حتى هموا بالجلاء.

فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك، فكتب إليه عمر بن الخطاب، أن قد أصبت أن الإسلام يهدم ما قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فالقها في النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدم الكتاب على عمرو بن العاص، فتح البطاقة فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد.. فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجر، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد الجبار أن يجريك.

فألقى ابن العاص البطاقة في النيل، وكان أهل مصر قد تهيأوا للخروج منها والجلاء، لأنه لا يقوم بمصلحتهم إلا النيل،

وأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة، واستراحوا من ضحاياه هذا العام، وما بعده من أعوام.

ويبدو أن المؤرخ ألآتي من صحارى الجزيرة العربية، حيث وأد البنات، وثقافة احتقار الأنثى؛ – إن جاز تسميتها ثقافة – قد عزَّ عليه أن يرى المرأة في مصر مساوية للرجل، في حضارة لا تعرف الوأد، ولا قتل الأنثى، انتشرت أسطورة عروس النيل شرقا وغربا، حتى باتت ملجأ الجهلاء والمتطرفين، وحصنهم المنيع، الذين دأبوا من خلاله على مهاجمة الحضارة المصرية، حتى إنه في العصر الحديث، وجدنا السينما المصرية تخرج علينا بفيلم "عروس النيل" مثبتا خرافة لا أصل لها، ناشرا هذه الخرافة بين المتعلمين، والمثقفين، والعامة من المصريين، وكل الناطقين بالعربية، وبدلاً من أن يبرئ الفيلم أجدادنا من هذه التهمة التي ألصقها بهم عقل مدَّعي، رأينا الفيلم يصور الفراعنة وهم أجدادنا، وحوشاً كاسرة وأمة بلا قلب، تبني أهرامات السخرة، وتغرق الفتيات الجميلات.

عمر بن الخطاب!!!

ثم أن هل يعقل أن ذلك الرجل الذي صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان مثالا في الرأي لدرجة أن قيل عنه: إن القرآن ينزل برأى عمر، هل يعقل أن يرسل "عمر" خطابا إلى نهر يحدثه فيه، وهل يعقل أن عمرو يوافقه الرأي على مخاطبة نهر، لا يسمع ولا يرى، أهي وثنية جديدة من أهل التقوى،

فعلا لقد خاطب عمر الحجر الأسود من قبل، ولكن ماذا قال له.. قال: أما والله لقد علمت أنك حجر، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك، ما قبلتك، إن قصة الرسالة الموجهة إلى نهر النيل مرفوضة منطقيا، فالفرق واضح في المخاطبة، ففي حالة الحجر لا تعد مخاطبة للحجر، ولكن في حالة نهر النيل تعد ليس فقط مخاطبة، ولكنها تفاوض أيضا، ولا أعتقد أن "عمر" نفسه، سيقبل أن يقال عنه ما قيل.

إن مصر لم تعرف التضحية البشرية: كذب من ابتكر هذه القصة، عندما ألصق هذه الجريمة بأبناء مصر وبالحضارة المصرية، فطوال تاريخ الأمة المصرية الممتد منذ ٤٢٤١ ق.م حيث اخترع تحوت التقويم، حتى دخول العرب مصر، لم تعرف مصر أي نوع من الأضاحي البشرية للآلهة، وسجل الفراعنة على جدران معابدهم وبردياتهم كل تفاصيل حياتهم، ولم يخجلوا من ذكر شيء، حتى عمليات الختان والزواج صوروها على جدرانهم، ولا يوجد دليل أثرى واحد على ألقاء عروس في نيل مصر كأضحية حتى يفيض، وكل الأضحيات التي قدمت إلى أي أله مصري قديم، كانت تضحيات حيوانية، وكانت التضحيات ما هي إلا نوع من التكافل الاجتماعي، حيث يقوم الأغنياء بتقديم هبات، أو أضحيات للمعابد، التي تتولى بدورها توزيع هذه الهبات على الفقراء.

إن فكرة إلقاء عروس للنيل؛ كي يتخذ منها زوجة له؛ هي فكرة مرضية ناتجه عن عقل مشبع بالحرمان الجنسى الذي

عهدناه في ثقافة الرمال، وبطلان هذه الفكرة، يأتي من أن إله النيل في حد ذاته، لم يكن ذكرا، بل كان إلهاً مخنثا يحمل أعضاء الذكورة والأنوثة معا، وهي إشارة إلى الخصوبة، حيث أن "حابى" يجدد نفسه بنفسه، ولا يحتاج إلى رفيق أو رفيقة؛ كي ينجب فيضان العام القادم، فهو ينجب من ذاته، لذا؛ فإن إلقاء فتاة جميلة كزوجة لحابى، لا محل لها من الإعراب بلغة الأعراب، لأن حابى ليس ذكرا؛ كي يفرح بفتاة جميلة في التراث المصري القديم.

توضح لنا القوانين المصرية القديمة منذ أقدم العصور، أن حق كل أنسان في الحياة، هو حق مطلق، وقتل النفس جريمة، يعاقب عليها القانون المصري، ولا يحكم على أحد بالإعدام، إلا بعد أجراءات تقاضى عادلة، يمثل فيها المتهم أمام محكمة، ويقدم دفاعا عن نفسه، وإذا أصدر قاضى حكما تشكك المتهم في نزاهته، فمن حق المتهم أن يستأنف الحكم أمام قاضى أعلى من سابقه، وإذا ما صدر الحكم النهائي بالإعدام على متهم، فأنه لا ينفذ إلا بعد موافقة فرعون "بر عا" شخصيا، وبإذن منه، وفى معظم الحالات كان الفرعون "بر عا" يخفف الحكم، ولم يستخدم الإعدام إلا في الحالات الخطرة، التي تهدد أمن الأمة المصرية، أو عرش فرعون "بر عا"،لكن وفقا للإجراءات القضائية الراسخة في تاريخ أبناء وادي النيل، هذه الحقيقة لم يدركها المدَّعى صاحب القصة، بل صور له عقله أن حضارة مصر القديمة لا تختلف عن حضارة الأعراب، إن

جاز أن نسميها حضارة، فالمرأة عند الأعراب إذا قتلت يؤخذ عنها دية ولا أكثر، فهي لا ترتقى إلى مستوى الرجل، ولم يعرف كيف ساوت حضارة مصر بين الرجل والمرأة قبل كل حضارات العالم.

يتجاهل المؤرخ حقيقة أن عمرو بن العاص غزا مصر عام ٦٤١م حيث كانت المسيحية تسود مصر من الإسكندرية شمالا حتى أسوان والنوبة ومنها إلى الحبشة جنوبا، وأن المصريين الذين أتوا إلى عمرو بن العاص كانوا ممن دعوهم أقباطا، فهل كان الأقباط المسيحيون يؤمنون بحابى إله النيل، وهل من عادة أو ديانة أقباط مصر تقديم أضاحي بشرية لآله القدماء، وهل ذكر مؤرخ واحد من مؤرخي العصر المسيحي هذه العادة، سواء كانوا مسيحيين أو يهودا أو وثنيين؟ إن أول ذكر لهذه القصة العجيبة، جاءت في كتاب ابن عبد الحكم، ولا يوجد أي إشارة لها في أثر تاريخي قبل هذه الفترة.

كما أن ألفاظ القصة نفسها، ليس لها علاقة بالألفاظ المصرية، ولا يمكن أن تصدر من مصري، فلفظ جارية لم يكن يطلق في يوم من الأيام على الفتايات المصريات، ولم يكن يستخدم في أرض مصر المحبوبة شمالا أو جنوبا.

أضف إلى ذلك أن أحداث القصة بدأت في شهر بؤونه، والثالث عشر منه يعادل الثاني والعشرين من شهر يونيو، ومن المعروف أن الموعد الطبيعي للفيضان هو نصف شهر

أغسطس، أي أن عدم فيضان النيل خلال الثلاث أشهر التالية لبداية القصة، لم يكن أمرا غريبا لدى المصريين، فمن أين لهم ذلك الرعب الذي يؤدى بهم إلى الرحيل، ثم أن كلمة الرحيل نفسها لم تكن وارده عند المصري القديم، فهو لا يرحل عن بلده أبدا، إلا للتجارة، أو للغزو ثم.... العودة، أما فكرة الرحيل عن الأرض؛ فهي فكرة بدوية راسخة في أذهان عرب البادية، للبحث عن المراعى أو الماء، ولكنها غير موجودة على الإطلاق في ثقافة المصري القديم.

والقصة الثانية: وهى الأقل شهرة، هي قصة إجبتيوس ملك مصر !!!

تقول القصة: أن إجيبتوس ملك مصر، قد جاءه الوحي بأن يضحى بابنته، بإلقائها في النيل لاتقاء الكوارث التي نزلت بالبلاد، وعندما فعل ذلك، حزن عليها حزنا شديدا فألفى بنفسه في النهر !!!

ويكفينا أن نقول: إنه لم يثبت إطلاقا أن ملكا على مصر كان يدعى أجبتيوس، فتاريخ مصر مدوَّن على حوائط معابدها، ولا داعى لابتكار أسماء من وحى خيالات لا أساس لها من الصحة، ابتكار أسماء، وقصص لا تمت للحقيقة بصلة، لكى نشوه تاريخ وحضارة شعب، هو في الأصل؛ أصل الحضارة.

كما أنه لا يمكن أن ننسب ذلك السلوك المشين، للمصري، الذي يقسم في "الإقرارات الإنكارية" الواردة بكتاب الموتى، بأنه

لم يؤذ جاره، ولم يتسبب في إيذاء مشاعر إنسان، وإنه لم يكن سببا في جريان دموع طفل أو امرأه أو أرملة...إلخ!!!

لا يمكن لمصري أن يلقى بأجمل فتاياته للنيل، أو حتى للجن الأزرق!!!

بل الدليل الوحيد الموثق يقول: إن عددا من ملوك الفراعنة، كانوا يردون على من يخطب بناتهم من ملوك العراق أو الحيثيين، بالرفض، لأنه لم تجرى العادة أبداً بأن تتزوج مصرية من أجنبي، لأن المصري لا يفرط في سيدة بيته!!!

ثم أن هناك تساؤلا يفرض نفسه؛ ألا وهو: هل يمكن للمصري الذي حنَّط موتاه لحماية أجسامهم، وبذل في سبيل تلك الحماية كل ما يملك من العلم، ليصل بالتحنيط حداً لم يصل إليه حتى العلم الحديث في يومنا هذا، بل حنط في بعض الأحيان أجسام حيوانات كانت تمثل له قيمة، سواء دينية، أو مادية، أو عاطفية، حنط الأجسام ليس فقط بهدف الحفاظ عليها، ولكن كان الهدف من التحنيط نابعا من عقيدة البعث، عقيدة لم تتزعزع على مر السنين، عقيدة تنبئ بالبعث في الحياة الآخرة، فيما يستدعى الحفاظ على الأجسام ليوم البعث، لم يكن يحنط الأجسام فقط، بل يزينها بأجمل وأغلى ما يمكن تزينها به، يزينها بأغلى ما يملك ثقافيا، وهى الكتابة، ويزينها بأغلى ما يملك ماديا، وهو الذهب، أيمكن لمن يؤمن بالبعث، أيمكن لمن

له مثل تلك العقيدة أن يتخلص من جسم سيدة بيته، أيمكن له أن يتخلص من جسم محبوبته، بإلقائها في النيل.

وإن جاز إلقاء عروس البحر في النيل للإله حابى الذي هو أقل درجات ودرجات من الإله أمون، أو أمون رع، لكنا وجدنا التضحيات البشرية عديدة وبأعداد لا يقدر عليها شعب، ولا يكفيها فتايات، سواء أكانوا أبكارا أو غير أبكار.

وإن كانت القصة الوهمية، تنص على أن التضحية البشرية كانت لحابى فقط، فهل كانت في طيبة فقط، أم في باقي المدن المطلة على النيل، تلك المملكة الممتدة لمسافة تفوق الألفي كيلومتر، من شوائط النيل شرقا وغربا، وإذا أضفنا فروعه السبعة في تلك الأوقات، لفاقت الشواطئ العشرة آلاف كليو متراً؛ كم مدينة تقع على هذه الشواطئ، وكم عروس نيل تم إلقاؤها سنويا، إن صح هذا، لكان النيل عبارة عن مقبرة جماعية لثقافة استمرت سبعة آلاف سنة، وبفرضية أن التضحية كانت تتم في خمسين تجمع سكاني فقط، خمسين مدينة، لكنا وجدنا في النيل الآن ما يفوق الثلاثمائة وخمسون ألف جثة لعروس نيل، أو على الأقل وجدنا آثار عظامهم.

ما أصل هذه الأكاذيب إذن؟؟؟

كانت تجرى في مصر القديمة احتفالات سنوية، بالفعل، احتفالاً بالإله "أوزوريس" إله الخير، وقد تم تصويره في العديد من المعابد على هيئة مومياء، ينموا عليها الشعير والحنطة والقمح.

فقد كان المصري يصنع لهذه المناسبة السعيدة، تماثيل صغيرة من الفخار، أو العجين، أو حتى الطين، مشابهة تماماً لعروسة المولد المصنوعة من الحلوى، ويغرس فيها الكثير والكثير من حبوب القمح والشعير، ويلقيها في النيل، بطول الوادي، مع بداية الفيضان، وكانت مياه النيل تأخذ هذه العرائس وتنقلها إلى ضفاف النيل مع سريانه شمالا، لتنبت هذه الحبوب في الماء، وتستقر العرائس على ضفاف النيل لتملأ الأرض خضرة، وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية، ورفعت من النيل، الآلاف من تلك العرائس الفخارية.

لنجد في النهاية أن قصة عروس النيل، لم تكن ولا يمكن أن تكون تضحية بشرية، بل هي مشاركة بشرية، مشاركة من الجميع للجميع، مشاركة الفرح والسعادة بفيضان النيل، فكل من يلقى بعروسة في النيل، يلقيها وهو ينتظر أن تنمو حبوبها، ولكن لا ينتظر نمو حبوبها في أرضه، بل لا ينتظر نمو حبوبها في بلده، وإنما ينتظر أن تنمو حبوبها عند جار له، قد يعرفه، أو لا يعرفه، تنمو عند مصري آخر، ولو كان يحيا على ضفاف النيل على بعد أيام وأيام من أخيه الذي أرسل هديته إليه.

وقد ورثنا هذه العادة حتى وقتنا الحاضر، فما زال المصري يهنئ أخاه المصري بكل الأعياد، بل تجدنا نسير في شوارع مصر محبوبتنا، لنلقى التحية لكل من نعرف أو لا نعرف، ونهنئ الآخر بالأعياد من خلال كلمة وابتسامة، سواء أكنا

نعرفه أو لا نعرفه، هذا ما ورثناه من عروس النيل وباق..... وسيبقى.

هذا هو شعب مصر المتحضر، وهذه هي ثقافته، وهذه هي طباعة في العطاء، العطاء المستمر، العطاء حتى وإن لم نكن نعرف لمن نعطى.

- أنا لم ألوث مياه النيل.
- أنا لم أتسبب في بكاء أحد.
- أنا لم أختطف اللبن من فم رضيع.
- أنا مصري، وهذه هي عقيدتي منذ الأزل.